جولة سياحية في عراق ما بعد الحرب:

في قلب التاريخ القديم والحديث

جيف هان، مدير سفريات هنترلاند- المملكة المتحدة

بعد جولاتنا الست الناجحة في العراق في عام 2002، أمطرت غيوم الحرب العاصفة، أخيراً على البلاد في هذه السنة. وقد قمنا بمحاولة ثانية في مارس/آذار الماضي لكن بينما عانت بغداد تحت القصف الذي ابتدأت به الحرب، استقر رأينا على جولة مبهجة في سورية بدلاً من ذلك وإن لم يكن ذلك هدفنا.

في يوليو/تموز، قمت بزيارة شخصية حذرة إلى بغداد لمدة ثمانية أيام. هل كان يفترض أن الحرب قد انتهت؟ هل كان الوضع أمينا للأجانب؟ هل أنّ أصدقاءنا العراقيين هم بخير وسلامة؟ وهل يمكن أن نسيّر الرحلات ثانية رغم الوضع القائم؟ وكان قراري ورأيي بالايجاب الحذر، وذلك بعد مخاطرة التوغل في الجنوب، إلى مدن الأضرحة، في كربلاء والنجف والكوفة. بالرغم من أن العراقيين ما زالوا يعانون من الذهول ويصدمون بسرعة الأحداث من حولهم، فهم لم يخضعوا كلياً ولكنهم بالتأكيد لم يبدوا مشاعر عدائية ضدّ الغرب. ←

شط العرب في الليل.
Shatt Al-Arab at night.

بغداد.

Baghdad.

عند عودتي إلى المملكة المتحدة، خطّطت، وأعلنت وحرضت الكثير من الناس، وجمعت أخيراً مجموعة صغيرة من كلّ الأعمار والجنسيات، ثلاثة بريطانيين، أمريكي، كندي ونرويجي زائداً رجل أعمال عربي بريطاني، ومنهم تكونت المجموعة التي شاركت في جولتنا الأولى في عراق ما بعد الحرب.

وهكذا بدأنا. ما الذي يدفع هؤلاء الناس للسفر إلى العراق، في هذا الوقت، مع كل الاهتمامَ الصحفي العالمي؟ وثبت أن الأسباب كانت خليطاً. الكلّ كانوا ضدَّ الحرب، والبعض كانوا مدفوعين بالاهتمام التاريخي بالدرجة الأولى، آخرون لهم دوافع سياسية ووجهات نظر البلدان التي جاؤوا منها. وبالنسبة لي شخصيا، كان عندي خليط من كلّ هذه الأشياء، لكن يضاف إليها أيضاً تصميم دائم لمساعدة وعمل شيء لأصدقائي في بغداد ومساهمتي في إعطاء العراق فرصة جديدة للنَجاح في هذا العالم الذي نعيشه. السياحة طاقة كامنة قد تتحول إلَى "سلاح دمار شامل" ونحن نبدأ بفهم دورها كلما يتقدّم بنا السير! ويمكنها أنْ تحطّم بنفس السهولة التي يمكن لها فيها أن تكون موردا للدخل أيضاً، وسبيل تفاهم ثقافي.

أخيرا وصلنا عمَّان، وأخذنا ملء سيارات أجرة جي إم سي، و تقدّمنا بيسر إلى الحدود وبغداد. وكانت آخر الأخبار تنقل المصادمات والمشاكل، خصوصاً حول بغداد. ودخلنا، على أية حال، الرمادي والفلوجة بدون أيّ مشكلة، وكانت الحياة فيهما تبدو في الظاهر عادية ومزدحمة. وتشجعت عند وصولنا الفندق في بغداد عصرا وكان هناك فريق من الناس للسلام علينا واستقبالنا.

وقمنا لليومين التاليين باستكشاف بغداد وضواحيها. إنّ المدينة تضج بالحركة، ووصول الشرطة العراقية، منذ زيارتي السابقة، فرض سيطرة على حركة المرور الهائلة بشكل أفضل، وهناك شيء من نفاد الصبر والتوتر في حالة السير. والبغداديون لا يتحملون الإنتظار حتى تنجز الأمور لهم، أو لإن يحصلوا على قوت لهم. قوّات الأمن، أساساً الأمريكان في كل مكان، تقوم بدوريّات، وتنصب حواجز في الطرق، كما أنها تُشرف على قوّات الشرطة الجديدة. وتجنبنا كل شيء، ولم نتوقّف إلا للضرورة، وواصلنا جدول زيارتنا فزرنا عقرقوف، وزقورة كيشية ومدينة قديمة عمرها 1,450 قبل الميلاد، وتل حرمل الموقع السومري المقدس الذي يعود إلى 2,400 قبل الميلاد. لا نهب هنا. ومن المحزن أن المتحف الوطني لن يكون جاهزا لبعض الوقت، لكن يظهر بأن متاحف العالم تعرض مساعدتها حاليا. مدينة بغداد القديمة تركّزت حول القصر العباسي، السوق والمساجد، خان مرجان والشوارع من حولها، هي الآن مزدحمة ونشطة لكن هناك حذر منّا كبضعة غربيين من غير المسؤولين الذين يرون في الشوارع، إلى أن تكون صيحتنا "نحن سيّاح" قد سمعت في النهاية، فيبدأ الترحيب حقا. نلاحظ جوا من التهذّيب لكن مع حرص على الحماية في كلّ مكان أثري. وجبات طعامنا اليومية كالمعتاد تمتد لفترة طويلة، هناك الكثير من الغذاء ولو أنه أغلى بنحو الثلث من سعره في السابق، وتدور محادثة ودية مع كلّ شخص.

تركنا بغداد في رحلة إلى الجنوب. بينما ننتظر نقلنا مبكراً هذا الصباح بشكل خاص، لاحظت طابورا من الرجال يتجه نحو زاوية شارعنا، (وقرب فندقنا تقع بناية الأمم المتّحدة والعديد من الفنادق والبنايات المؤجرة لأجهزة الإعلام الدولية) البعض بسيارة الأجرة، البعض مشياً على الأقدام، البعض بحافلة، آخرون بالسيارة وهم يضبطون قيافتهم الرسمية والعصابة المربوطة على أذرعتهم تدل على أنّهم شرطة أو حماية عراقية. لم يكن بينهم مسلّح، والجميع مرسومة على وجوههم نظرة جدّية، وعملهم خطر ←

السياح في سامراء.

Group at Samarra miaret.

لكنَّه شغل، وفي النهاية هذا ما سيعول عليه، وهؤلاء هم الرجال الذين سيحمون المستقبل. وأنا أحيّيهم.

وبروح التوقّع، غادرنا جنوباً على طريق الحلة، ولما قاربنا الوصول إلى المسيب، أخذنا نلاقي زوارا يشقّون طريقهم مشياً على الأقدام إلى المدن المقدسة، لكن وجهتنا أولاً كانت بابل. وواجهتني هنا مشكلتي الأولى. كان علينا أن نقنع حراس الموقع، وهم حالياً فريق من الجيش البولندي، بأنّ عليهم أن يسمحوا لنا دخول هذه المدينة، أمّ المدن. وبعد عدد من المكالمات الهاتفية، وبالمراهنة على سمعتي ورصيدي المعنوي، سمح لنا بالدخول تحت الحماية الصارمة. والحمد لله، فإن الحرب لم تؤثر كثيرا على هذا الموقع، والأدلاء في المواقع العراقية متهيؤون وهم ينتظرون الزوار من العالم للقدوم إليهم.

وقريب منها العديد من المواقع القديمة، أحد المواقع التي تميزت بأنها الأكثر جاذبية للتصوير هي بورسيبا. هذا الموقع سومري، وعمره 5,000 سنةً على الأقل، زقورته القديمة مغطّاة ببناية فارسية من القرن الثاني قبل الميلاد. وقبالتها مسجد صغير هو مقام لنبي الله إبراهيم الذي يقال أنه رقد هناك عندما كان طفلا رضيعا. وتحت هذا المسجد قصر سومري عظيم. نحن في قلب تاريخ العالم.

ثم سرنا إلى الكفل. هذه البلدة الصغيرة لها تاريخ عاصف لكن وجود قبر ذي الكفل أو حزقيل المذكور في التوراة، يدل على أن لها ماض مدهش من القرن السادس قبل الميلاد إلى 1300 بعد الميلاد وما تلاها، وهي أيضاً مكان جيد للتأمل.

والمدينة العربية القديمة، الكوفة، قريبة من هنا. هذا هو موقع المسجد الأقدم الثاني في العراق، ومكان اغتيال الإمام علي (رض). هنا حصلت لنا تجربة استثنائية. لقد تم الترحيب بنا هنا بطريقة لم أعهدها من قبل أبداً في زياراتي لهذا المسجد. وفي العادة يقيّد دخول الكفار، وهو أمر مفهوم، على أية حال. لقد دُعينا للدخول، فزرنا مكان الإغتيال، واختلطنا بحرّية مع المؤمنين.

إنه لأمر يثير الذهول، أو على الأقل كنت أنا كذلك. ثم إنتقلنا إلى النجف. وهنا رأينا القبة الذهبية العظيمة لكن أيضاً مكان مقتل السيد الحكيم مؤخرا، وآخرين غيره. بالرغم من أن المكان قد أزيلت منه آثار ما حصل، لكن هذا الموقعُ، بجانب الضريح، فيه حالة من الحداد المستمر. وهذا هو فصل آخر من حالة الاستشهاد التي تحيط بالنجف.

أخيراً توّجنا اليوم بإقامتنا في كربلاء. الحشود كانت تتجمّع لاحتفال اليوم التالي. ناس من جميع أنحاء العراق وإيران. وكان الناس يستوقّفوننا بشكل مستمر، من أنتم؟ من أين جئتم؟ لماذا أنتم هنا الآن؟ أشْعرُ بالتواضع، هل نحن جسر بين الشعوب، أو ذلك فقط علامة كبرياء؟

لكنّ أمامنا أياما أخرى، وعلينا أن نواصل السفر. الوركاء هي وجهتنا الرئيسية. هذا الموقع القديم من المحتمل أن يكون الموقع الأكثر أهمية في كلّ العراق. إنها أكبر مدينة سومرية معروفة، حيث اكتشفت فيها أصول الكتابة والتأليف منذ 4,000 قبل الميلاد، مدينة جلجامش، المعمورة بشكل مستمر حتى العصور الإسلامية. ومشينا نترنح بسبب الحرارة ولكن بتصميم على أن نتمتع بهذه المدينة.

سفرتنا التالية كانت إلى الناصرية، بوّابة الأهوار ←

مسيرة عزاء إلى كربلاء.
Shi'i mourners on their way to Kerbala.

ومشهد المعارك الحديثة العهد جداً. لكن قريبا منها أور القديمة. تحتوي المدينة على أعظم زقورة في العراق، وهي مشهور بقبورها الملكية، لكن أيضاً بسبب كونها قاعدة للطيران والصواريخ لنحو 40 سنة تقريباً. وهي الآن في يد سادة جدّد. ودرنا بخطى حذرة حول السياسات الجديدة، مثلما عملنا مع القديمة، وفزنا بمكافأة زيارة. ووجدنا بأنّنا لسنا وحيدين. فإن مجموعات من أفراد القوّات الأمريكية الصغار كانوا يتعرفون على الماضي أيضاً، يقودهم أدلاء عراقيون. إنّ لبلاد ما بين النهرين القديمة سحر عالمي.

أخيراً توقّفنا في البصرة، واستكشفنا المدينة بسرعة، للتحسّس بالجوّ ولمناقشة السياسة والعودة إلى بغداد. إنطباعي الفوري عنها أنها مدينة ضائعة. تحتاج البصرة لمعرفة نفسها وهدفها. هل كان لها ذلك أبداً كما قد يتسائل بعض المتهكمين ؟ يقول التاريخ إنه كان لها مثل هذه الروح في بعض الفترات. الجواب في تجارتها. والتجارة هي التي حفّزت هذا الميناء دائماً، فلتستأنفها.

كان هذا هو الجنوب. حيث إننا رأينا المواقع الرئيسية وسافرنا إلى البصرة. كان هناك العديد من الأماكن التي لم نرها، لكن هذه متروكة ليوم آخر. السياحة إلى المواقع السومرية العظيمة في العراق هي أمر ممكن ويجب علينا أن نكون واثقين بذلك.

الآن، جاء دور الشمال. اعترضتنا حواجز طرق خارج بغداد لكن هذه كانت متوقّعة وقد اجتزناها بسهولة متناهية ووصلنا سامراء. والقبة الذهبية العظيمة لمسجد الإمام الهادي والمئذنة القديمة الحلزونية التي تعود إلى القرن الثامن هما العلامتان الشاخصتان لنا على حد سواء. يجب أنْ تَكُونَ هذه إحدى أجود الأماكن في الشرق الأوسط. وهناك امتداد 20 كلم للمدينة القديمة غير المُنَقَّب عنها ما وراء سامراء الحديثة.

استمر سيرنا شمالاً مع تجاوز تكريت، التي هي مركز نشاط أمني لكنها ستكون مستقبلاً ذات موقع مهم على الخارطة السياحية، كموطن صدام حسين. ووصلنا إلى الموصل، محور الشمال، مدينة عربية/كردية ذات ماض عريق حيث العديد من كنائس المسيحية الشرقية والعديد من المساجد المشهورة. وعبر النهر تقع نينوى القديمة، العاصمة الأخيرة للإمبراطورية الآشورية التي سقطت في 612 قبل الميلاد، والآن تضيق عليها المدينة الحديثة. مجرد حجم هذا الموقع والتفاف 11 كلم من حيطانه وأبوابه تذهب بالخيال. ولقد كان مشجّعا بعد سنوات من الإهمال أن تقام محاولات لتطهير الأماكن المهمة سياحيا في الموقع، والحرّاس يقظون ويمنعون كل محاولات النهب والسلب. ←

سمك مسقوف.

The Mazgouf fish.

استعملنا الموصل كمركز لنا لنزور المناطق المحيطة. هناك الكثير مما يستحق الزيارة، وخورسيباد القديمة، آشور، نمرود، مدن آشورية عظيمة من الماضي، وكلها مواقع للتجول حولها والتفكير في أمرها. وكلّها الآن تحت الحراسة لأن محاولات النهب حدثت قبل شهور قليلة. النمرود بشكل خاص، يثير بسبب تنقيباته الدقيقة، وما يعرضه من قصور اكتشفت فيها كنوز عظيمة، وبعد ذلك جرى فقدها ثم تم لاحقا العثور عليها مخزونة في بغداد، الأمر الذي تناقلته الأخبار مؤخراً. إنّ الأديرة مثل مار بهنام ومار توما ترتبط بهما أساطير قديمة، واليوم هما مركزان نشطان كثيرا، ونحن نضيفهما دائماً إلى جدول رحلاتنا.

يتجادل العراقيون في أغلب الأحيان عن أفضل مكان للمسقوف. هذه الزيارة أنتجت لنا مسقوفا عظيما بجانب دجلة، في الموصل. ليل دافئ، موسيقى، العديد من الناس خرجوا للترويح عن أنفسهم حتى وقت متأخر من الليل. أضف إلى ذلك سمكا لذيذا جدا. هذا المساء البهيج يقف على الضد من توتّرات بغداد حيث لا يكون بإمكانك البقاء خارجا حتى هذا الوقت المتأخّر، في مثل هذا الاسترخاء، وهذا يبين الاختلاف بين شمال وجنوب البلاد في هذا الوقت بالخصوص.

إقامتنا في الموصل كانت قصيرة جداً، وكما هي العادة، هناك الكثير مما لم نره، لكن بالنسبة لي هي تجربة جديدة. سافرنا عنها فعبرنا نهر الزاب العظيم إلى أربيل. وهناك ادعاء بأنها أحدى أقدم مدن العالم، ولم يكن ممكنا تحت نظام صدام زيارة العراق وهذه المدينة في نفس الوقت. وقد دهشت من منظر التلّ الذي يشرف على المدينة، وما زاد في دهشتي هو التفكير فيما قد يحتويه التل من الآف الطبقات من سنوات تاريخ البشرية. إنّ المدينة الحديثة نظيفة، منظّمة، ومليئة بالناس الودّودين جداً الذين كانوا متشوّقين جدا لمعرفتنا خصوصاً عندما أطلقنا صرختنا "نحن سيّاح" هذا النوع النادر، في هذا الجزء من العراق على أية حال.

لكن، كان علينا أنْ نغادر وأن نلحق بالطائرة. لكن، ليس قبل تغيير الخطة، لأن طريق كركوك-بغداد اعتبر مشكلة أمنية؟ لست متأكّدا بأنّني أوافق على ذلك، لكن معرفة المنطقة عنصر أساسي. لذا عدنا عن طريق الموصل وكان ذلك في صالحنا لأنه منحنا فرصة زيارة تلك المدينة "العربية"، الحضر، في طريقنا إلى بغداد. وهي تقع بعض الشيء باتجاه الصحراء الغربية، موقع تراثي اعترفت به منظمة الأمم المتحدة للعلوم والتربية والثقافة (اليونسكو)، تحرسه القوات الأمريكية والمليشيات العراقية الجديدة وهم يقفون عند هذا الموقع الأثري الرائع. لقد صمد بوجه الرومان وهو الآن يقف ضدّ التخريب الحديث. بالنسبة لنا نحن الأوربيين، وبالمقارنة مع الأبنية الطينية ولكن الأقدم تاريخيا في الجنوب، هو أقرب إلى مفهومنا عنْ المعابد والبنايات.

الآن، وقد أشبعنا تطلعاتنا بعض الشيء وصلنا إلى بغداد بعد أنْ قطعت الرحلة حواجز الأمن وجرت حوارات مثيرة بيننا وبين قوّات الأمن الأمريكية. لربَّما انتشرت شهرتنا السياحية!

وزرنا الكاظمية كآخر تجربة لنا. هذا المسجد تعبير رائع عن الفَنّ الإسلامي ونقطة مركزية لكلّ التوتّرات الحديثة للإسلام والمشاكل الجديدة لبغداد والعراق. المسجد محروس من قبل رجال مليشيات شيعية، وتلقينا ترحيبا هو مزيج من التسامح والتعصّب. تجربة لا تفوّت.

بعد أنْ اجتزنا كل هذا بسلام، غادرنا عائدين إلى عمَّان ممتلئين بالمعرفة. شخصياً، أنا حزين بسبب حرب العصابات المستمرة لكني متفائل باستجابة العراقيين لأوضاعهم اليومية. إنهم شعب ذو تصميم وأنا أعلم بأن سيكون لنا معهم مستقبل سياحي متواصل. وأنا أترقب جولتنا السياحية الرئيسية في مارس/آذار 2004. ■